الفصل التاسع

الألوهية ـ والدين ـ والأخلاق

بين الإله والإلحاد

ـ الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق، فى المنظور الإسلامى

ـ العلم ينطق بالحق

ـ كائن عاطفى، خلوق، متدين

ـ مع علم النفس

ـ والآن إلى كلمة البيولوجيا

ـ مراكز التدين فى المخ

ـ الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق، فى المنظور المادى/ الإلحادى

ـ الداروينية الاجتماعية

ـ علم النفس التطورى

ـ البيولوجيا الاجتماعية

ـ التفسيرات المادية فى الميزان

ـ المسألة الأخلاقية

ـ الأنانية، الإيثار، الضمير

ـ نشأة الدوافع الأخلاقية عند الدراونة

ـ أخلاق بلا أخلاق

ـ هل تصلح البيئة مصدرًا للأخلاق؟

ـ ليسوا لا دينيين، إنهم ضد الدين

ـ بل ضد الإسلام

ـ مصائب دين الإلحاد

ـ الإلحاد المسالم!

ـ الإلحاد الأصولى أشد خطرًا

ـ جهل أم تزوير: تاريخ الماركسية والنازية

ـ التشخيص النهائى

ـ إلحاد الاستنارة مصدر العنف

ـ القارئ الكريم

«إذا لم يكنْ الإلهُ موجودًا ... فإن كلَّ شيءٍ مباح».

دستوفسكى

«الأخوة كرامازوف»

تمثل الألوهيـة والدين والأخلاق فى المنظور الإسـلامى متتالية، تبـدأ بالإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ الذى أنزل الدين، وجعل من أساسياته اسـتكمال المنظومة الأخلاقية للإنسان. ولتأصيل هذه المنظومة فى النفس الإنسانية استخدم الإسلام منهجًا من **ثلاث آليات تعمل بشكل متتال:**

الفطرة ـ الرسالة ـ العقل

أمـا **الفكـر الإلحادى**، فيرفض هذه الآليات الثلاث، ويرى أن الإنسـان قد اكتسـب **الحس الإلهـى والحس الديـنى والحس الأخلاقـى** بنفس الطريقة التى اكتسـب بها سـماته الأخرى، وهـى التطور لتحقيـق المصلحة، أى أن «**الحاجة أم الاختراع**». ويقصدون بذلك أن الإنسـان فى مواجهـة قوى الطبيعة والـشرور والآلام بحث عن قوة كبرى يستشـعر فى وجودها الدعم والأمان، فاخترع على المستوى العقلى والنفسى مفهوم الألوهية ومفهوم الدين. وهذا ما يقصده نيتشه بقوله: «**إن الإنسان هو الذى خلق الإله !**».

ويـرى الملاحدة كذلك أن الإنسـان قد ابتكر **المنظومة الأخلاقيـة** عندما وجد أن الالتزام الأخلاقى يحقق له حسـن السيرة وخلود الذكر فى الحياة، ويشـعره بالرضا عند مقاومته للشر ! ويضيف البعض أن الإنسـان يفعـل الخير لذات الخير! وأخـيرًا وقبل كل شىء أدرك الإنسـان أنه إن لم يستمسـك بالأخلاق فسـنغرق جميعًا!

والآن إلى كلمة العقل والعلم لتكون الحَكَم فى هذه القضية.

الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق في المنظور الإسلامي

يعتمد الإسلام فى بناء المنظومة الإيمانية على آليات ثلاث، هى «**الفطرة والرسالة والعقل**». وبالرغم من أننا لا ننطلق فى تفنيدنا لحجج الملاحدة من الدين، فقد فضلنا أن نبدأ طرحنا بعرض هذه الآليات وإظهار منزلتها فى القرآن الكريم، ثم نسترشد عليها بالأدلة العلمية والفلسفية، حتى نتيح للقارئ الفرصة أثناء إبحاره فى هذا الفصل ليوائم بين كلمة العلم ومنهج الإسلام.

يخبرنا القرآن الكريم بأن الله عَزَّوَجَلَّ قد وضع «**فطرة**» الدين و**الإيمان** به فى النفس البشرية ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم]، وقد كان وضع الفطرة فى نفوس البشر بغير واسطة من مَلَك مُقرَّب أو نبى مُرسل، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ .... ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]. وهذه الفطرة تقف وراء شوق الإنسان وشغفه للبحث عن الإله الحق والدين الحق.

ويشير القرآن الكريم إلى أن الفطرة تكاد تصل بالإنسان إلى الهداية وإن لم تصله الديانات السماوية ﴿ ... يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ ... ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور]، أى أن **نور الوحى** يضاف إلى **نور الفطرة** لتكتمل إنارة طريق الهداية للإنسان.

وبالنسبة «**للرسالات السماوية**»، يخبرنا القرآن الكريم أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يترك أمة دون أن يرسل لها من يُعرّفها دينها ﴿ ...وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر]. وقد جاءت الرسالات السماوية لتُعَرِّف الإنسانَ بربه وبدينه، وتُذكِّره بالميثاق الذى وضعه الله عَزَّوَجَلَّ فى فطرته، لذلك يكرر القرآن الكريم كثيرًا فى آياته قول الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

وبعد الفطرة والرسالة يأتى دور «**العقل**»، فنجد القرآن الكريم يكرر الدعوة إلى التعقل قُرابة الخمسين مرة، ويؤكد فاعلية العقل بقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ... ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]. ويبين القرآن أن من يعطل مَلَكَة العقل ويحرم نفسه من عطائها يصير كالأنعام أو أضل.

العلم ينطق بالحق

تصف كارين أرمسترونج[1] الإنسان فى كتابها «تاريخ الإله» A History of God بأنه كائن روحى، وتقترح للجنس البشرى اسمًا آخر، ليصبح Homo-religious **(الإنسان الدِّين) بدلًا من** Homo-sapiens **(الإنسان العاقل)**. وتؤكد د. أرمسترونج بذلك أن **المفاهيم الدينية فطرية عند الإنسان**، ومن ثم من المستحيل استئصال شأفة الدين من النفس الإنسانية كما يطمع الملحدون، أى أن الأمر ليس «وهم الإله The God Delusion» كما يَدَّعى ريتشارد دوكنز.

فما هى صفات الإنسان ومستجدات العلم التى تقف وراء رؤية كارين أرمسترونج؟:

كائن عاطفى، خَلوق، متدين

يخبرنا إدوارد ويلسون[2] (أستاذ البيولوجيا الاجتماعية فى جامعة هارفارد) أن **الإنسان عاطفى بطبعه**، وأن هذا الحس **مُسَجَّل فى جيناتنا**.

كما يخبرنا جيمس واطسون [3] فى كتابه DNA، أن **المفاهيم الأخلاقية** Moral Codes **مدموغة فى جينات الإنسان** منذ نشأته، وقبل وجود الديانات.

كذلك يخبرنا روبرت وينستون[4] رئيس الاتحاد البريطانى لتقدم العلوم فى كتابه «الفطرة

(1) Karen Armstrong: مفكرة إنجليزية مهتمة بالأديان، تدور كتاباتها حول اتفاق الأديان الرئيسية فى نفس المفاهيم، وتعتبر أن الحل الجذرى لجميع مشكلات الإنسانية هو «أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك». ودعت فى فبراير 2008 إلى تشكيل مجلس عالمى للتوفيق بين المسلمين والمسيحيين واليهود. وهى شديدة الاهتمام والاحترام للإسلام، وقد أصدرت عنه عدة مؤلفات عقب أحداث 11 سبتمبر 2001. ولدت عام 1944.

(2) Edward O.wilson: من المهتمين بالفلسفة والأديان وحقوق الإنسان. حصل على جائزة بوليتزر العالمية مرتين. يُعتبر كتابه وحدة العلوم Consilience من أحسن ما كُتب عن العلاقة بين البيولوجيا والطبيعة الإنسانية. ولد بالولايات المتحدة عام 1929.

(3) James watson: ولد بالولايات المتحدة عام 1928، والتحق بجامعة شيكاغو وعمره 15 عامًا. حصل على الدكتوراه فى علم الوراثة عام 1950. حصل على جائزة نوبل عام 1962 (مشاركة مع فرانسيس كريك وموريس ويلكنز) لتوصله إلى اكتشاف تركيب جزىء الدنا DNA، وما زال يعمل فى مختلف مجالات الأبحاث البيولوجية.

(4) Robert Winston: إنجليزى، يعمل كأستاذ وعميد معهد أمراض وجراحة النساء والتوليد بلندن، وله أبحاث مشهورة فى مجال أطفال الأنابيب والحيوانات المنوية والخلايا الجذعية. وهو كاتب وإعلامى شهير. ولد عام 1940.

البشرية» أن **الحس الدينى جزء من بنيتنا النفسية**، وأنه **مسجل فى جيناتنا**، وأنه يتراوح قوةً وضعفًا من إنسان لآخر.

ويؤكد مايكل شيرمر[1] (رئيس تحرير مجلة الشَّكَّاك) أن **الشعور بثنائية الجسد والروح أمر فطرى مزروع فينا منذ ولادتنا.** ويؤيد نفس المعنى بول بلوم[2] (أستاذ علم النفس بجامعة ييل بالولايات المتحدة) قائلًا: «إننا كائنات ثنائية (جسد وروح)، دُمِغَ فى جيناتنا (HardWired) **الإيمان بحياة أخرى** تحيا فيها الروح بعد مغادرة الجسد الفانى. إن هذا الإيمان هو أصل الفطرة الدينية»[3].

ولا شك أن هناك علاقة فطرية قوية بين عناصر هذا الثالوث: كَوْن الإنسان مخلوق عاطفى، وتبنيه للمفاهيم الأخلاقية، واستجابته للمشاعر الدينية.

والآن إلى كلمة البيولوجيا

توصل دين هامر[4] (رئيس وحدة أبحاث الجينات بالمعهد القومى للسرطان بالولايات المتحدة) إلى أن الإنسان يرث مجموعة من الجينات التى تجعله مستعدًا لتقبل مفاهيم **الألوهية والدين** God Gene Hypothesis.

وقد خرج هامر بهذا المفهوم بناء على الأبحاث التى أجراها على جينات السلوك، وعلى دراسات بيولوجيا الأعصاب وعلم النفس، ونشر نتائج هذه الأبحاث فى كتابه «**جين الألوهية** The God Gene: How faith is Hardwired in our genes»، عام 2004 [5].

---

(1) Michael Shermer: أمريكى، أستاذ الاقتصاد بجامعة كلاريمونت، مهتم بالفلسفة والعلوم. يرأس تحرير مجلة Skeptic التى تصدرها جمعية Skeptics التى تضم 55.000 عضو، وتهتم بتنقية العلم مما يحيط به من ضلالات. ولد عام 1954.

(2) Paul Bloom: يعمل كأستاذ لعلم النفس بجامعة ييل، مهتم بكيف نتعرف على العالم المحيط. ولد عام 1963 بكندا.

(3) جاء هذا الطرح فى كتابه: Descartes baby: How the Science of child development explains what makes us Human الذى نُشر عام 2004.

(4) Dean Hamer: ولد عام 1951 بالولايات المتحدة.

(5) من أهم الجينات المسئولة عن هذا الاستعداد هو الجين المعروف بـ VMAT2. هذا الجين مسئول عن تكوين ناقل كيميائى بالمخ يُعرف باسم Vesicular monamine transporter، ومسئول عن تحديد مستوى عدد من الناقلات الكيميائية التى تنظم عمل المخ (السيروتونين - الدوبامين - النورأدرينالين). كما أن له دورًا فى توجيه نشأة مراكز المخ المسئولة عن المشاعر الروحية والمفاهيم الغيبية.

وكما تتوقع، واجه كتاب دين هامر «جين الألوهية» معارضات من بعض الأوساط العلمية. وربما يرجع ذلك إلى اسم الكتاب الذى استفز الماديين، بالرغم من أن ما يطرحه من مفاهيم علمية ليس بجديد!، فقد طرحها من قبل علم النفس وعلوم المخ والأعصاب[1].

و إذا كان الماديون يؤمنون أن كل سلوكيات ومشاعر الإنسان تحكمها الجينات (الحتمية الجينية)، فلماذا يستبعدون ذلك مع السلوكيات والمشاعر الدينية؟! إن ما فعله دين هامر (وهو ليس متدينًا) أنه توصل إلى الجينات المسئولة عن التوجهات الدينية، وهو ما يتمشى مع منظومة الماديين، فما وجه اعتراضهم؟!

مع علم النفس

قبل كتاب دين هامر بعشرين سنة، طرح د. كلود كلوننجر[2] (أستاذ علم النفس والطب النفسى وعلوم الوراثة بجامعة واشنطن) «**نظرية المزاجات والأخلاق الوراثية** Temperament And Character Inventory» والتى صارت من المفاهيم الثابتة فى الأوساط العلمية. فى هذه النظرية، طرح كلوننجر **ثلاث مجموعات من الأخلاق الوراثية** (تمهد جيناتنا للتخلق بها) تحدد ميول البشر الإنسانية والأخلاقية والروحية. وهذه الأخلاق هى:

1- **مصداقية الذات** Self-Directedness: وتشمل وضوح الأهداف Purposefulness، وكَوْن الإنسان أهلًا للثقة Reliable (وهى صفات خاصة بذات الإنسان).

---

(1) كرد فعل للكتاب، طرحت مجلة تايم Time فى عدد 25 أكتوبر 2004 موضوعًا مهماً بعنوان «جين الألوهية»، تؤكد فيه أن **الشعور بالإله، والرغبة فى التوجه إليه بالعبادة،** وكذلك **الشعور بوجود النعيم والعذاب فى حياة أخرى بعد الموت،** أمور فطرية عند البشر، فى كل الحضارات عبر التاريخ وعبر الجغرافيا.
ومن أوضح الأمثلة على ذلك، اهتمام **الفراعنة** الشديد بالموت والتحنيط وما بعد الموت. و يظهر ذلك فى المعابد الضخمة وفى رسوم المقابر الفرعونية، وكذلك البرديات مثل كتاب الموتى. وقد أظهرت الدراسات اهتمامًا مشابهًا عند القدماء فى الهند والصين وأمريكا الجنوبية و إسبانيا وفرنسا وبريطانيا والسويد.

(2) Claud Robert Cloninger: وُلد فى الولايات المتحدة عام 1944. وهو رائد فى أبحاث الجينات وبيولوجيا الأعصاب والطب النفسى والأمراض النفسية، وقد شغل منصب الأستاذية فى هذه التخصصات، وشغل أيضًا منصب مدير مركز الصحة النفسية فى جامعة واشنطن. وهو الناشر الرئيسى لعدد من المجلات العلمية المحترمة فى الطب النفسى والوراثة، واشترك فى تأليف أربعة كتب وأكثر من 400 بحث علمى.
وقد كُرِّم كلوننجر بالعديد من الجوائز ، منها العضوية مدى الحياة فى الأكاديمية الأمريكية للعلوم، وحصل عام 2009 على جائزة اتحاد الأمراض النفسية الأمريكى لجهوده لفهم الإنسان بشكل متكامل (جسم - عقل - نفس - روح).

2- **التعاون** Cooperativeness: ويشمل استعداد الإنسان لمساعدة الآخرين Helpful وتَحَمُّلهم Tolerant والعزوف عن الانتقام Non-Revengeful (وهى صفات تحكم تعامل الإنسان مع الآخرين).

3- **تجاوز الذات (السمو النفسى)** Self-Transcendence: ويشمل الميول الروحية Spiritualness والإبداع Creativity **وإنكار الذات** Self - forgetfulness **والبعد عن المادية** Non-Materialism (وهى صفات خاصة بالمفاهيم العلوية).

وإذا تأملنا هذه المجموعات الثلاث من الأخلاق، وجدنا أنها تمثل «**الأساس النفسى**» **لفطرة التدين وفطرة المنظومة الأخلاقية فى الإنسان**، ثم تقوم «**التربية**» بتنمية هذه التوجهات.

وتقوم **جينات معينة** (فى الجنين وفى مرحلة الطفولة) بتكوين الدوائر العصبية المسئولة عن هذه الصفات فى المراكز الخاصة بالتعلم وبالمفاهيم المُسْبَقة **فى القشرة المخية الحديثة** Neocortex، **التى يتميز بها الإنسان عن باقى الثدييات.**

الذكاء الروحى (الوجودى)

تَطَرَّق اهتمام علماء النفس فى السنوات الأخيرة إلى أنواع من الذكاء غير تلك المسئولة عن القدرات العقلية للتحصيل الدراسى، فظهرت عدة نظريات فى هذا المجال، أهمها **نظرية الذكاء المتعدد** [1] Multiple Intelligence Theory **لهاورد جاردنر. وقد أثبتت نظرية جاردنر وجود عدة أنواع وليس نوعًا واحدًا من الذكاء الإنسانى، يشكل كلٌّ منها نَسَقًا مستقلًّا خاصًّا به، ويشغل كلٌّ منها مركزًا مستقلًّا فى المخ تم تحديده بالفحوصات الإشعاعية الحديثة.**

طرح جاردنر فى نظريته ثمانية أنواع من الذكاء[2]، ثم أَتْبَعها بما أطلق عليه اسم «**الذكاء الروحى** Spiritual Intelligence»، وقد وجد هذا الاصطلاح معارضة كبيرة ممن يعتبرون أن كل ما ينسب إلى الروح ليس بعلم، فاستبدله جاردنر باصطلاح «الذكاء الوجودى

---

(1) قدّم هذه النظرية هوارد جاردنر Howard Gardner الأستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة لأول مرة عام 1983 فى كتاب بعنوان «أُطر العقل»، واستمر فى تطويرها لما يزيد على عشرين عامًا.

(2) **أنواع الذكاء الثمانية هى**: الذكاء اللغوى، الذكاء المنطقى - الرياضى، الذكاء المكانى، الذكاء الموسيقى، الذكاء الجسمى - الحركى، ذكاء العلاقة مع الآخرين، ذكاء فهم الذات، الذكاء التصنيفى.

Existential Intelligence» ووصف فيه كل ما نسبه إلى الذكاء الروحى، وهو يهتم بالقضايا فوق الحسية وبالقضايا الأساسية للوجود الإنسانى[1].

مراكز التدين فى المخ

فى كتاب «**أشباح فى المخ** Phantoms in the Brain» يبين د.راماشاندران[2] (أستاذ ورئيس مركز أبحاث بيولوجيا المخ والأعصاب بجامعة كاليفورنيا) أن **الإيمان بأمور ما وراء الطبيعة منتشر فى جميع الحضارات القديمة والحديثة**، مما يحتم علينا أن نبحث عن أصوله البيولوجية فى المخ، فلا شىء يميز الإنسان عن باقى الكائنات مثل هذا الأمر. ولدراسة ذلك تم تأسيس علم جديد باسم Neuro - Theology [3]، ويختص بدراسة الأسس البيولوجية العصبية للروحانيات.

ومن المهتمين بهذا العلم د. آندرو نيوبيرج و د. يوجين داكويلى[4]. وقد أجرى العالِمان

(1) **مكونات الذكاء الروحى:**

1- **الوعى بالذات**: معرفة معتقداتى، وموقعى من الوجود، ودوافعى العميقة.
2- إدراك أن **العالم المادى جزء من حقيقة أكبر**، تربطنا بها علاقات.
3- القدرة على طرح **الأسئلة المعرفية النهائية**، والقدرة على فهم الإجابة عنها.
4- القدرة على **التسامى على المفاهيم المادية**، إلى مستوى أرقى وأسمى وأعمق.
5- الحياة تبعًا **للمبادئ والعقائد والمُثُل**.
6- أخذ **المفاهيم الروحية فى الاعتبار فى تعاملاتنا اليومية**.
7- امتلاك **قناعة شخصية تجاه الأمور**، وإن اختلفت مع الأغلبية.
8- **التواضع**، وإدراك حجمنا الحقيقى فى العالم، والشعور بأننا أفراد من فريق.
9- **قبول الآخر** المختلف عنا.
10- الاستجابة لنداء الفطرة **لمساعدة الآخرين**.
11- **الاستقامة الأخلاقية**، والتمسك بالعفة والطهر.
12- الشعور بأن **سعادتى تنبع من داخلى**، وليس من الإنجاز العملى أو المادى.
13- **نفاذ البصيرة وقوة الحدس**.

(2) V. Ramachandran: ولد فى الهند عام 1951. يوصف راما شاندران بأنه ماركو بولو علوم المخ والأعصاب (الرحالة والمستكشف الشهير فى العصور الوسطى) وبأنه بول بروكا العصر الحديث (مؤسس علوم المخ والأعصاب).

(3) كذلك تم تأسيس علم Geno-Theology لدراسة الأسس الجينية للروحانيات. ويجمع العلمين علم Bio-Theology الذى يدرس الأسس البيولوجية للروحانيات.

(4) Andrew Newberg: أستاذ الأشعة التشخيصية ومدير مركز أبحاث المخ والدراسات الروحية بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة. و Eugene D'Aquili أستاذ الأمراض النفسية بنفس الجامعة. وسُجلت نتائج الأبحاث=

أبحاثهما على الرهبان البوذيين والراهبات الفرانسيسكان فى أثناء تأملاتهم وصلواتهم، وتوصلا إلى أن **المشاعر الروحية تصحبها تغيرات حقيقية (أمكن ملاحظتها وتسجيلها وتصويرها) فى نشاط الجهاز الحوفى** Limbic System **المسئول عن الانفعالات، وكذلك فى القشرة المخية فى المنطقة المسئولة عن الاستيعاب والإدراك** (1) Oriention Association area. وفى المقابل فإن تنشيط هذه المراكز من الخارج يؤدى إلى الإحساس بمشاعر روحية فياضة. معنى ذلك أن **المشاعر الروحية ليست مجرد أوهام أو تخيلات بل إن لها مراكزها العصبية فى المخ**. لذلك يؤكد الباحثان، أن **المخ البشرى قد تم تشكيله بحيث يستجيب للمشاعر الدينية**[2].

بذلك أصبح الاستنتاج الذى لا مفر منه، هو أن المخ البشرى وكذلك جيناتنا قد تم إعدادهما للتعامل مع المنظومة الإلهية والدينية.

يتضح مما سبق توافق كلمة العلم مع كلمة الإسلام بخصوص **الأصول الفطرية لمتتالية (الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق)** فى النفس البشرية، فما هو الطرح المادى/الإلحادى لتفسير هذه المتتالية؟

الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق
فى المنظور المادى/الإلحادى

يرفض الملاحدة القول **بأسس فطرية** للحس الإلهى والحس الدينى والحس الأخلاقى. **كما يرفضون** القول **برسالات سماوية تُعَرِّف** الإنسان بالإله وبالدين وتنبهه إلى هذه المشاعر

=فى كتابَىّ «لماذا يأبى الإله أن يختفى؟» Why God Won't go away? 2001، و«كيف يُغَيِّر الإيمان بالله المخ؟» How God Changes your Brain? 2009

(1) تقع عند التقاء فصوص المخ: الجدارى والصدغى والخلفى.

(2) إن هذا التوافق بين بنية الدين وبنية المخ البشرى يمتد إلى **بيولوجيا الجسم الإنسانى**، وينعكس بشكل إيجابى على صحته الجسدية والعقلية والنفسية. وحول هذا المعنى يقول أندرو سيمز Andrew Sims، عالِم الفيزياء بمركز «الطب الخلوى Cellular Medicine» بنيو كاسل بإنجلترا: إن «الآثار الإيجابية» للإيمان الدينى والروحانيات على الصحة الجسدية والعقلية والنفسية من أهم أسرار علم النفس والطب بصفة عامة. وإذا كانت الأبحاث العديدة والمكثفة التى أجريت فى هذا المجال قد أشارت إلى نتائج سلبية على الصحة لوجَدْتَ الأخبار تملأ الصفحات الأولى فى جميع صحف العالم.

الفطرية التى كثيرًا ما يطمسها الشق المادى فى بنيته. ولا شك أن الملاحدة يرفضون كذلك **دلالة العقل** على هذه المنظومة.

ويعتبر الملاحدة بزوغ ثلاثية (الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق) **أحد نتائج التطور الداروينى** أثناء صراع الإنسان فى مواجهة قوى الطبيعة والشرور والآلام. وقد تطورت نظرة الفكر المادى إلى نشأة هذه الثلاثية، لكنها ظلت أسيرة لفكرة واحدة، وهى أن «**الحاجة أم الاختراع**»! وكانت النتيجة مزيجًا من العلوم المتداخلة التى **تتفق فى رفض المفاهيم الدينية**:

الداروينية الاجتماعية[1] Social Darwinism

فى كتابه الأول «أصل الأنواع» لم يتعرض داروين للجانب الاجتماعى لنظريته، لكنه طرحه فى كتابه الثانى «أصل الإنسان». فسر داروين نشأة الأخلاق بالمبدأين المتكاملين؛ «**الصراع من أجل البقاء**» و«**البقاء للأصلح**»، أى اعتبر أن الأخلاق الإنسانية (ثم القول بالألوهية والدين) قد تطورت ثم استقرت تبعًا لما يحقق للإنسان المصلحة والتفوق.

وانطلاقًا من هذين المبدأين، قال داروين (ومريدوه) بتفوق الأجناس الأعلى (القوقازى) على الأجناس الأدنى (التركى)! ومن ثَمَّ ادعاء تفوق الجنس الآرى Eugenics. وبالرغم من أن هذه العنصرية البغيضة تعتبر من أكبر الأكاذيب فى تاريخ علم الاجتماع، فقد أدت إلى ميلاد اثنين من أسوأ النظم الاجتماعية والسياسية وأكثرها كُلفة فى التاريخ؛ الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى والنازية فى ألمانيا.

فهل مثل هذه **الآلية الصراعية العنصرية** هى بحق مصدر مفاهيمنا الأخلاقية والإلهية والدينية؟!

أما **ألفريد والاس** (نظير داروين) فقد رفض المنظور الداروينى، وكتب عام 1864 يتساءل: «كيف أفرز الانتخاب الطبيعى المفاهيم الأخلاقية الجيدة، كالمنطقية والإيثار؟!». ويرى والاس أن مبدأى «الصراع من أجل البقاء» و«البقاء للأصلح» قد أديا إلى تفوق الإنسان

(1) رغم أن الداروينية الاجتماعية استمدت اسمها من داروين، إلا أن الأفكار التى تشير إليها سابقة لكتاباته، وتعتمد على العديد من مؤلفات باحثين آخرين، أمثال هربرت سبنسر، وتوماس مالتوس، وفرنسيس جالتون.

الحديث على حساب الإنسان البدائى، الذى انقرض نتيجة لعدوانية أجدادنا، أى أن بقاء الأول كان على حساب فناء الثانى. ولما كانت هذه النتيجة لا تتماشى مع منظومتنا الأخلاقية، فذلك يعنى أن **لأخلاقنا مصدرًا آخر غير «الصراع»**، ويرى والاس أن هذا المصدر ليس إلا **الإله الخالق** للعقل البشرى خلقًا مباشرًا.

البيولوجيا الاجتماعية Sociobiology

بعد أن توصل واطسون وكريك إلى **بنية جزىء الدنا** DNA **وطريقة أدائه لوظائفه**، بدأ الاهتمام بالانعكاسات الأخلاقية لهذا الاكتشاف.

يُعتبر إدوارد ويلسون أبو البيولوجيا الاجتماعية، وفى عام 1975 أصدر كتابه «البيولوجيا الاجتماعية»[1]، الذى تبنى فيه أن **الأخلاق «تكيف بيولوجى تطورى»**، وأنها مجرد **«أوهام» تصورها لنا جيناتنا لتنظم عملية التكاثر الذى يخدم بقاءنا**. وقد واجه الكتاب هجومًا عنيفًا، إذ اعتبره البعض يبرر الاغتصاب ويروج للتمييز الجنسى للذكر على حساب الأنثى ولغيره من الأخلاق الدنية، وفى النهاية فهو يدعو إلى تلاشى المسئولية الفردية، ويقوض أسس محاسبة الإنسان على أخطائه. إنها **أخلاق عجيبة هشة**، تلك التى تخدعنا بها جيناتنا، ويتبنى ريتشارد دوكنز هذا المفهوم ويذهب به إلى أقصاه فى كتابه «الجين الأنانى»[2].

علم النفس التطورى Evolutionary Psychology

ومع تقدم علم البيولوجيا الجزيئية (الجينات) وعلم النفس وامتزاجهما بمفاهيم التطور الداروينى ظهر علم النفس التطورى، الذى تبنى معظم مفاهيم الداروينية الاجتماعية والبيولوجيا الاجتماعية.

ويمثل **تفسير نشأة الديانات** التحدى الأكبر لعلم النفسى التطورى، فوضع لتفسير نشأتها العديد من الفرضيات المتشابهة إلى حد بعيد[3]، وتتبنى جميعها أن **الديانات «أوهام تكيفية ذات وظيفة»**،

(1) Sociobiology: The New Synthesis

(2) تعرضنا لآراء دوكنز عن الحياة فى الفصل الخامس، ونطرح المزيد منها فى الفصل العاشر.

(3) يُعتبر **فرويد** من أشهر من تعرض لنشأة الديانات، واعتبرها «أوهامًا تهدف إلى تحقيق غاية» Wish Fulfillment.=

تعين الإنسان على مواجهة ما يعانيه من ضغوط وتهديدات فى هذا العالم الملىء بالشرور والمعاناة والقلق وأخيرًا الموت، وفى نفس الوقت تعين فى تنظيم المجتمع. لذلك **ابتكر الإنسانُ الأبَ الذى فى السماء** ليدعمه بما يملك من القوة والمعرفة والمحبة والرعاية. وقد جمع ديڤيد ويلسون معظم الفرضيات التى تدور حول هذا المعنى فيما يُعرف **بالتفسير الوظيفى للدين** Functional Interpretation of Religion

التفسيرات المادية فى الميزان

لا شك أن كل ما طرحه الماديون لتفسير مصدر الألوهية والدين والأخلاق يقف وراءه **رفض المفاهيم الغيبية**، أكثر من كونه نظرات علمية أو شبه علمية. إن «الخطأ المزرى» الذى يقع فيه الماديون هو **تصورهم أن وجود فوائد من وراء فكرة الإله والدين، يعنى أن الإنسان قد اخترعها لتحصيل هذه الفوائد**. ومن ثم اعتبروا أنهم إذا أثبتوا وجود هذه الفوائد فقد أثبتوا أن الألوهية والدين من اختراع الإنسان! **وكأن الإله إذا خلق لا ينبغى أن يحقق فائدة!!**

تأمل هذا المثال الذى يبين سخف تصور الماديين: انقطع التيار الكهربائى عن المكان الذى تسير فيه، ثم تنبهت أن معك التليفون المحمول، فاستخدمته لإضاءة الطريق، لقد كانت الفكرة مفيدة حقًا. هل يعنى ذلك أن التليفون المحمول مجرد وهم اخترعته لحاجتك إلى وجود الضوء! أم أنه وجود حقيقى؟! إن وجود الفائدة لا ينفى وجود الشىء بل يؤيده.

سبحان الله... لقد قلبوا الحقائق؛ عندما وجدنا علة للشىء تبرر وجوده ادَّعوا أن العلة دفعتنا إلى توهم الوجود! لقد **جعلوا من وجود الغاية مدعاة لافتراض التوهم!!**

= ويصف **رودنى ستارك** Rodney Stark نشأة الديانات بأنها «نتيجة منطقية» لحلم الإنسان بحياة فاضلة خالدة. ويرى **باسكال بوير** Pascal Boyer أن الأوهام الدينية من «توابع = الآثار الجانبية» تطور أمخاخنا إلى هيئتها الحالية، فصارت تحلم بعوالم غيبية تحقق فيها السعادة الأبدية. أما **سكوت أتران** Scott Atran فيرى أن الدين «عبء ذو فائدة اجتماعية» وأخيرًا وليس بآخر، يرى **ستيفن بنكر** Steven Pinker أن «الدين تكيف من أجل البقاء».
القارئ الكريم... أُصْدقك القول، أنى لا أجد فرقًا يُذكر بين هذه الفرضيات! فلا تنتظر منى المزيد من الإيضاح!

المسألة الأخلاقية

الأنانية ، الإيثار، الضمير[1]

عندما يجلب أمر ما لأنفسنا اللذة والسرور فإننا نشعر تجاهه برغبة تحملنا على البحث عنه والقيام به، وعندما يسبب لنا المعاناة أو الألم فإننا نشعر نحوه ببغض يدفعنا إلى الفرار منه وتحاشيه. وتُسمى هذه الدوافع «**بالميول الأنانية**»، وشعارها «**كل شيء لي ولو كان ذلك على حساب الآخرين**».

ومن الناس من يتصفون برقة العاطفة فيتألموا لآلام الآخرين ويُسَّروا لسرورهم، ويسعوا للتخفيف من آلامهم وجلب السرور لهم، ويُسمى ذلك بـ «**المشاركة الوجدانية**». وإذا وصل الأمر إلى التضحية كان ذلك إنكارًا للذات، وأُطلق عليه «**الإيثار**». وهؤلاء يكون شعارهم: «**كل شيء للآخرين ولو كان ذلك على حسابي**».

وعندما نبلغ سن الرشد، يتشكل لنا «**ضمير**» يشعرنا أن عملًا ما واجب التنفيذ، وآخر واجب الترك، وثالث مباح. فإذا فعلنا (أو تركنا) ما هو واجب شعرنا بلذة الرضا الأخلاقي، وإذا قصرنا في ذلك شعرنا بألم تبكيت الضمير. ومن ثم يصبح «**وحي الضمير**» هو المصدر الثالث للسعادة والشقاء. وهؤلاء يكون شعارهم: «**إرضاء الضمير أولًا وقبل كل شيء**».

والإنسان المتزن تحكمه الدوافع الأخلاقية الثلاثة: الأنانية، والإيثار، والضمير. وتمثل هذه الدوافع أساس ما يُعرف عند الفلاسفة بـ «**المسألة الأخلاقية**»، التي تتلخص فيما يلي: تنبعث فينا طموحات مختلفة، فكيف نسلك تجاهها؟ أنتبع الميول الأنانية، أم نستجيب لعاطفة الرحمة والإيثار أم نسعى إلى طمأنينة الضمير؟

وتأتي **الديانات** لتنظم العلاقة بين هذه الدوافع التي وضعها الإله في فطرة البشر؛ تحثنا على الفاضل منها، وتنهانا عما هو دنيء. والديانات في حكمها على الشيء بين فضل ودناءة تخضع لمقاييس «**مطلقة**» يحددها الإله.

(1) عن كتاب المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، تأليف أندريه كريسون، وترجمة الشيخ د. عبد الحليم محمود. دار المعارف.

وفى المقابـل، ترى **النظـرة الإلحادية** أن هذه الدوافع قد شَـكَّلَها **التطـور البيولوجى** وليس الخَلـق الإلهى، ويهدف التطور فى ذلك لتحقيـق الفائدة التى تخدم تكاثر الكائن وبقاءه، ومن ثم تصبح «**الأخلاق نسـبية**»، تتشـكل فى إطار أن الغاية تبرر الوسيلة. وإذا كان يسهل تفسير نشـأة دافع «**الأنانية**» بآلية الغاية تبرر الوسـيلة، فمن الصعب تفسير نشأة دافع «**الضمير**»، أما دافع «**الإيثار**» فسيظل الصخرة الكؤود فى مواجهة التطور الداروينى.

نشأة الدوافع الأخلاقية عند الداروني

يـرى دارون أن الحيوانات التى تتمتع «بحس اجتماعى» (ومنها الإنسـان)، ما أن تصل إلى درجـة معقولة مـن الذكاء حتى «تكتسـب» «دوافع أخلاقية» تعينها عـلى الحياة فى الظروف الاجتماعيـة السـائدة. أى أن **الظروف الاجتماعية هى التى تشـكل الأخلاق**، عكس المنظور الديـنى الذى يعتـبر أن الأخلاق توجـه حياتنا ومن ثم تشـكل ظروفنـا الاجتماعية. ويشرح دارون وجهـة نظره بمثال: إذا نُشِّـئ إنسـان تحت الظـروف الاجتماعية التى تُنَشّـأ فيها **جماعة النحل** (هذه الجماعة التى تعتبر فيها شـغالات النحل قتل إخوتها الذكور واجبًا مقدسًـا لخدمة الخليـة، كما تقتل الأمهات بناتها القادرات على وضع البيض دون أى شـعور بالذنب) فإن هذا الإنسان سيتبنى نفس المفاهيم الأخلاقية ونفس السلوك.

ويعـرض علينا دارون أمثلة واقعية من عالم الإنسـان، يعتقد أنها تخدم فكرته، فيقول: من **أسوأ حقائق الداروينية الاجتماعية** أن الهنود الحمر يتركون رفاقهم الضعفاء فى العراء ليموتوا، وكذلـك قبائل الفيجيانز Feegeans الذين يدفنون والديهم المسـنين ومرضاهم أحياء من أجل الحفاظ على موارد الطبيعة القليلة للأفراد الأصحاء الأقوياء المفيدين للمجتمع، وهو ما يتماشى مع مفهوم الانتخاب الطبيعى.

الداروينية وخُلق التعاطف

ثم يتنبه دارون لمفارقة لا يجد لها تفسـيرًا، كانت كفيلة بأن تبدل مفاهيمه. يقول دارون: ومع تقدم الحضارة، أصبح «**التعاطف** Sympathy» أنبل ما فى طبيعتنا البشرية، فصارت الأغلبية العظمـى من البشر يبذلون أقصى الجهد فى رعاية والديهم المسـنين ومرضاهم وضعفائهم، وإن كلفهـم ذلـك ثرواتهم المتواضعة بـل وحياتهم. بل صار الناس يُشَـيِّدون المصحات ويسـنون

القوانـين لحماية حيـاة من يعرفون ومن لا يعرفون. وامتد هذا التعاطف لاسـتئناس الحيوانات المنزلية بكل ما يمثل ذلك من مخاطر صحية للجنس الإنساني[1].

ويجتهد دارون فى **تفسير ظهور خُلُق التعاطف** (شعورًا ثم فعلًا)، فيفترض أن ذلك كان من أجـل التخفيف من شـعورنا بالضيق والألم عندما نرى معاناة الآخرين، وكلما تقدم الإنسـان حضاريًّا مَدَّ حسه التعاطفى إلى من لا يعرفهم من أفراد مجتمعه. ويمنع حاجز الأنانية الإنسان من أن يمد تعاطفه إلى المجتمعات الأخرى، وقد يتجاوز الإنسـان هذا الحاجز ليشـمل بتعاطفه الإنسـانية جمعاء، ثم ليشمل الحيوان وكل الكائنات. ونحن نسـأل دارون: لماذا يشعر الإنسان بالضيق والألم تجاه معاناة الآخرين؟ وما هو الدافع التطورى لأن يمد الإنسـان تعاطفه إلى من لا يعرفهم وإلى الحيوانات؟ ألا يتعارض ذلك مع الانتخاب الطبيعى؟

ويعـترف دارون أن رعاية الإنسـان لمرضـاه وضعفائه، وأيضًا للأغـراب والحيوانات، **تهدد دون شـك الجنـس البشرى**، إذ تعوق الانتخـاب الطبيعى والبقـاء للأصلح. ويبحث دارون عن تبرير واحد للارتباط القوى بين ذيوع التعاطف (عمقًا وانتشـارًا) وبين تقدم الحضـارات، فيقول: حـين يتنافس مجتمعان، فإن الأكثر تعاطفًا يكون قادرًا على تشـكيل جيش أكثر تماسـكًا، فيستطيع أن يقهر المجتمع الآخر، بذلك ساد خلق التعاطف وانتشر فى العالم[2]!

يتعـارض هـذا الطرح مـع طرح آخـر قدمـه دارون، إذ يرى أن المتوحشـين سيسـودون ويفتكون بالإنسـان المتعاطف المتحضر خلال قرون قليلة، فهم الأكثر شراسة، والأقدر على الفتك بالمتحضرين المُرَفَّهين[3]. وإذا كان التعاطف بهذا الضرر، فلِمَ ظهر، ولِمَ تبناه الإنسان؟! إن المتابـع لموقـف دارون فى هـذا الموضـوع يجـده **يتأرجح بـين المادية المطلقـة للتطور وبين الرغبة فى المحافظة على ما وصفه بأنه أنبل ما فى طبيعتنا الإنسـانية!** ولا ندرى لِمَ اعتبر دارون أن التعاطـف هو أنبـل صفاتنا؟ أليس التعاطف مثل لون عيوننا واسترسـال شـعورنا كما يردد التطوريون؟!

(1) Descent of Man, Princeton university press, 1981, P. 168

(2) Descent of Man, Princeton university press, 1981 P. 162 - 163

(3) Descent of Man, Princeton university press, 1981 P. 201

إنسان فاضل رغم أنف الدراونة

إذا تركنا دراسات دارون، وقطعنا قرنًا ونصف من الزمان، وجدنا من الدراسات الحديثة ما يقلب المائدة على الدراونة. فقد ثبت أن الإنسان لا يلتزم بـ «الصراع من أجل البقاء» بل **يسلك فى المقام الأول بناءً على دوافعه الأخلاقية حتى فى أحلك الظروف**. ولعل من أقوى الدراسات تلك التى قام بها «صامويل مارشال» المؤرخ الرسمى للجيش الأمريكى[1]، والتى أظهرت أن ثلاثة من كل أربعة جنود أمريكيين (75 %) لم يطلقوا نيران أسلحتهم بشكل مباشر لقتل أحد الأعداء حتى وهم معرضون للخطر، بل كان رادعهم الأخلاقى الرافض للقتل يجعلهم يترددون، وقد عُرفت هذه النسبة بـ«**معدل مارشال لإطلاق النار فى الحروب**».

وقد مثل هذا **الرادع الأخلاقى** مشكلة كبيرة للجيش الأمريكى، فَبَدَّلَ المسئولون من أسلوب التدريب على إطلاق النار أثناء الحروب بحيث يصبح أمرًا تلقائيًّا وعشوائيًّا عند مجرد التعرض للخطر، كما احتاج الأمر إعداد الجنود نفسيًّا من أجل تشجيعهم على القتل. بذلك انخفضت هذه النسبة عن الحرب الكورية وحرب ڤيتنام حتى وصلت إلى 10 % فى حرب العراق. سبحان الله؛ الأصل فى الإنسان هو الالتزام الأخلاقى وليس الصراع الداروينى من أجل البقاء، حتى وهو فى أشد لحظات المواجهة.

الدراونة والإيثار

إذا كان الدراونة قد عجزوا عن تفسير نشأة التعاطف بين البشر، فلا شك أن تفسير نشأة خُلق «**الإيثار** Altruism» سيكون أصعب، فهو **يعمل ضد هدف التطور الرئيسى، وهو المحافظة على النوع**.

فعلى **المستوى الفردى**، ما الذى يدفعنى للتضحية بذاتى من أجل المجتمع والجنس البشرى؟ ما الذى يدفع جيناتى الأنانية[2] للتضحية بذاتها؟ وما الذى يدفع جينات كرات الدم البيضاء للتضحية بذاتها فى صراعها ضد الميكروبات لدفع المرض عن الجسد؟!. وعلى المستوى الأكبر، ما

(1) Samuel Lyman Atwood Marshall: (1900 - 1977)، المؤرخ الرسمى للجيش الأمريكى أثناء الحرب العالمية الثانية وما بعدها من حروب. ألف أكثر من 30 كتابًا عن سلوك الجنود أثناء الحرب، وأشهرها Men Against fire.

(2) هذا الوصف إشارة إلى كتاب (الجين الأنانى) تأليف كبير الملاحدة ريتشارد دوكنز.

الذى يدفع **المجتمع** للتضحية بموارده وجهد أفراده من أجل العناية بالضعفاء والمرضى والمعَوَّقين والمسنين؟. أليس ذلك ضد البقاء للأصلح؟ ألا يزيد ذلك من فرصة بقاء الأقل صلاحية؟

يفترض الداروِنة إننا نفعل ذلك **من أجل أن يفعله معنا الآخرون** عندما نمرض أو نهرم، بالرغم من أن هذا التفسير مرفوض داروينيًّا!! **فالتطور ليس له بصيرة مستقبلية**، ومن ثم لا يفرض علينا التزامًا أخلاقيًّا تجاه ضعفائنا حتى يساعدنا الآخرون فيما بعد. إن التطور لا يعرف مَثَلَنا الشعبى «مَن قَدَّم السبت يلقى الحد (يوم الأحد) قُدَّامُه».

وفى مقالة لهربرت سيمون[1] لاقت قبولًا واسعًا بين الدراونة، يقول: يخبرنا علم النفس التطورى أن الإنسان يسلك بطريقة تزيد من لياقته (صلاحيته) فى مختلف المجالات، وأهمها المحافظة على جيناته ونقلها للأجيال التالية. وإذا كان **سلوك الإيثار** يتعارض مع مصلحة الإنسان، فإن نشأة هذا السلوك ترجع إلى آليتين تعملان سويًّا؛ اللين والدماثة Docility، والمحدودية العقلية Bounded Rationality. فالشخص اللين الدمث يتجاوب مع ما يريده منه الآخرون، ولا يفرق بين ما يزيد من صلاحيته وما ينتقص منها! ولو كان هؤلاء أذكياء بالقدر الكافى لَمَا أقدموا على هذا السلوك!

إن سيمون هنا يُرجع خُلُق الإيثار إلى سلوك الأفراد على عكس ما يفرضه التطور الداروينى، فيتصارعون من أجل الفناء وليس البقاء! وتفسيره لذلك أنهم **أغبياء وضعفاء الشخصية**!. لا شك أن هذا الطرح السيمونى يتعارض تمامًا مع الحقيقة، فالذين يُؤْثِرون الآخرين عادة ما يكونون شخصيات قوية ذكية حاسمة حازمة. ما أسوأه من طرح، يتغافل عما نرصده بأعيننا، **ويقلب فضائل الأخلاق والإعمال إلى نقائص غبية**، من أجل إثبات فكرة مسبقة.

ويفسر دوكنز هذا التصور السيمونى الشاذ لنشأة خلق الإيثار ـ فى ضوء مفهومه عن الجين الأنانى ـ تفسيرًا لا يدرك عواقبه على موقفه الإلحادى! يقول دوكنز: «بالرغم من أن الإنسان ليس إلا جيناته، فإنه **يستطيع بطريقة ما التمرد عليها والقيام بغير ما تمليه عليه**. فبرغم من أننا آلات جينية فلدينا القدرة على التمرد على خالقينا، **الإنسان فقط هو القادر على التمرد على طغيان جيناته**»[2].

---

(1) Herbert Simon: حاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد، أصبح فيما بعد أستاذًا للكمبيوتر وعلم النفس بجامعة بطرسبرج. والمقال بعنوان: A Mechanism for Social Selection of Altruistic Behaviour

(2) The Selfish Gene oxford press,1976, P.215

لكن كيف نتمرد على جيناتنا؟! أين هى الحتمية الجينية؟

من أين لنا حرية الإرادة والقدرة على التمرد؟

دوكنز لا يجيب، وإلا اضطر لمشاركة المؤمنين قولهم بحرية الإرادة وإيمانهم بالله.

أخلاق بلا أخلاق

رأينا كيف يعتبر دارون الأخلاق **من نتائج الانتخاب الطبيعى فى المجال السلوكى**، مثلها مثل أى صفات بيولوجية أخرى؛ مثل منقار الطائر، هل يوصف المنقار بأنه خير أو شر؟ **إنه فقط مفيد** للقيام بوظائفه لهذا الطائر بالتحديد تحت هذه الظروف فى هذه الفترة من الزمن. لذلك فاستخدامنا لاصطلاح جيد أو سيئ يكون **من منطلق الفائدة المادية وليس القيمة الأخلاقية**، أى **ليست هناك أخلاق فاضلة وأخرى شريرة**، ولكن هناك سلوكيات ومفاهيم تعين بشكل مباشر أو غير مباشر فى الصراع من أجل البقاء.

وفى حديثه عن الآثار الجانبية لمفهوم التطور قرب ختام كتابه «أصل الإنسان»، يقول دارون: إن الإنسان، مثل كل الحيوانات الأخرى، وصل إلى وجوده الحالى من خلال التكاثر. وفى أثناء صراعه من أجل البقاء قام الانتخاب الطبيعى بدوره، لولا ذلك لتساوى الرجال الأقدر مع الرجال الأقل قدرة، ولضعفت البشرية كثيرًا. لذلك **يجب أن يُترك هذا التنافس مفتوحًا بين الرجال**، ولا ينبغى أن يُمنع الرجال الأكثر قدرة بحكم العادات والقوانين من إنجاب أكبر عدد من الذُّرية[1].

من هذا المفهوم نخرج بقيمة أخلاقية؛ وهى أن «**الرجل الأفضل» لا بد أن يُعطى فرصة أكبر للتكاثر**. بذلك يصبح منع الزنا وتشجيع الزواج الفردى خطر على الإنسانية؛ لأنه يعوق تزايد الأفضل. أى أن ما هو أَلْيَق من المنظور الدينى والإنسانى والأخلاقى هو أسوأ فى المنظور الداروينى. كذلك ينبغى أن نُدين دارون بخداع البشرية! لأنه كان شديد الإخلاص لزوجته إيما Emma!

يطرح هذا الموقف البيولوجى صدامًا بين خُلُق «**العفة**» الذى نعتبره قيمة فاضلة، وبين

(1) Descent of man, Princeton university press, 1981,p.409.

ما تعتبره الطبيعة فى مصلحتها ومصلحة البشرية، وهو «**الإباحية**». يا ترى أى الخُلُقين خُلُق حسن وأيهما خُلُق ردىء؟ لقد أجاب الفلاسفة الملحدون عن هذا التساؤل قبل أن يطرح داروين نظريته بفترة طويلة، إذ تبنوا نظرة **مادية إلى الأخلاق تنزع عنها أى فضائل**. وقد عبر عن هذا المعنى بوضوح فى القرن السابع عشر **الفيلسوف المادى توماس هوبز**[1]، إذ اعتبر أن الطبيعة ليست إلا مادة متحركة، وبالتالى فهى ليست فاضلة أو غير فاضلة، إنها فقط **لا تبالى بالفضائل**. لذلك لا ينبغى أن نتحدث عن خير وشر مجردين، تمامًا مثلما لا نتحدث عن تفاعل كيميائى خَيِّر وآخر شرير، إنها أمور تحدث بالضرورة. ومن ثم فالخير والشر ليسا إلا انعكاس لرغبات الإنسان، ما يحب وما يكره، ومن ثم فهى **مفاهيم نسبية**، فإذا كان إفلاس خصمك شر له فإنه خير لك. ومن ثم فأخلاق الإنسان (عند الماديين) ليست إلا **تفاعلات مادية**.

بعد ثلاثة قرون، طرح **نيتشه، فيلسوف النازية**، نفس الفكرة قائلًا: «إن كونًا بدون إله يكون خاليًا من مفاهيم الخير والشر، بل إن هذه المفاهيم **تصورات إنسانية** نفرضها على الكون الذى لا يبالى بنا».

ويتبنى **ريتشارد دوكنز** آراء هوبز ونيتشه وداروين، فيقول: «إن الطبيعة ليست شريرة، لكنها للأسف **غير مبالية**، وهذا من أصعب الدروس التى ينبغى أن يستوعبها الإنسان. فمن الصعب علينا الإقرار بأن كل الأمور ليست خيرة أو شريرة، ليست رحيمة أو شرسة، إنها لا مبالية بكل آلام الإنسان، إذ **ليس لدى الطبيعة أى هدف**»[2].

هل تصلح البيئة مصدرًا للأخلاق؟

فى حديثه عن مصدر الأخلاق، يقول ريتشارد دوكنز: «**لسنا محتاجين للإله لنكون جيدين**، فأنت لا تكاد ترى اختلافًا كبيرًا فى ردود أفعال المتدينين والملاحدة، بل وبين البشر جميعًا، تجاه مواقف أخلاقية معقدة». كيف لم يتنبه دوكنز إلى أن قوله يعنى **أن البشر جميعًا لديهم مصدر مشترك للمفاهيم الأخلاقية** بغض النظر عن الاختلافات الجنسية والحضارية والعقائدية؟!

(1) Thomas Hobbes: (1588 - 1679)، الفيلسوف البريطانى المادى الشهير.

(2) River out of Eden New York: Basic Book,1995, p.95- 96

إن ذلك الاتفاق ليس له إلا أحد تفسيرين؛ إما أن **المفاهيم الأخلاقية فطرية فى الطبيعة الإنسانية**، وإما أن تكون هناك **رسالة سماوية واحدة** وصلت إلى شعوب الأرض جميعًا[1].

ونحن نقول بالرأيين معًا (الفطرة والرسالة) كما ذكرنا فى بداية الفصل.

لكن، هل يقبل الملاحدة الجدد أى من هذين الرأيين؟ بالطبع لا...

إنهم لا يقبلون الدين ولا الفطرة، ولم يبق أمامهم إلا **البيئة (الطبيعة والمجتمع) كمصدر للمنظومة الأخلاقية الموحدة**. هنا يقع الملاحدة فى تناقض، فدوكنز يحدثنا عن عالمية الأخلاق، ويرجعها إلى عوامل طبيعية ومجتمعية «**متشابهة**» تَعَرَّض لها الجنس الإنسانى الواحد، بينما يعتبر التطوريون أن هذه العوامل «**متباينة**» وأن تباينها عنصر مهم فى التنوع البشرى!

ويدعى الدراونة أن **الثورة العلمية** قد شاركت فى تشكيل منظومتنا الأخلاقية المعاصرة، باعتبار أن **العلم** جزء من المنظومة البيئية للإنسان، فما مدى صحة ادعائهم؟

يجيب أينشتين عن هذا التساؤل فى حوار عن العلم والدين، جرى فى برلين عام 1930، **قائلًا:** لا شك أن هناك أُسسًا أخلاقية للعلم، لكننا لا نستطيع أن نتحدث عن أسسٍ علمية للأخلاق. لقد فشلت وستفشل كل محاولات إخضاع الأخلاق لقوانين العلم ومعادلاته، ومن ثم **لا يمكن أن يكون العلم مصدرًا للأخلاق**[2]. ويشارك ريتشارد فينمان[3] (الفيزيائى الحائز على جائزة نوبل) أينشتين رأيه **قائلًا:** إن أكبر القوى والقوانين الفيزيائية لا تستطيع أن تبين لنا كيف نستخدمها، إن العلم لا يعلمنا الخير والشر، لذلك **فالقيم الأخلاقية تقع خارج مجال العلم**.

ويطرح هولمز رولستون[4] جانبًا نفسيًّا للمشكلة بقوله: لقد جَعَلَنا العلم أكثر معرفة وأكثر قوة، لكنه تركنا فى الوقت نفسه **أقل ثقة بالصواب والخطأ**. إن ماضينا التطورى غير منسجم مع حاضرنا الأخلاقى، **ليس هناك طريق واضح يصل بين البيولوجيا والأخلاق**، إن مصدر الأخلاق مشكلة كبيرة.

---

(1) ﴿...وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر].

(2) Max Jammer: Einstein and Religion. Princeton University Press,1999, P. 69.

(3) Richard Feynman: (1918 - 1988)، عالم الفيزياء النظرية الأمريكى، متخصص فى فيزياء الكم.

(4) Holmes Rolston: أستاذ الفلسفة بجامعة كلورادو بالولايات المتحدة. ولد عام 1932.

ويلخص عالم الأخلاق الشهير بيتر سنجر [1] مخاطر إخراج الإله من الصورة واللجوء إلى البيئة كمصدر للأخلاق، فيقول: لقد وَضَعَنَا التطور الداروينى فى موقف حرج بعد أن أزال الحاجز بيننا وبين باقى الكائنات، وبعد أن قام بالإطاحة بالدين كمؤسسة مسئولة عن أخلاقنا السامية؛ فلم يعد ممكنًا أن نبنى أخلاقنا على أن الإنسان مخلوق متفرد شُكِّل على صورة الإله وزُوِّد بروح خالدة. لا شك أننا **سنعجز فى المستقبل عن استعادة مفاهيمنا الأخلاقية السامية**، ولا بد أن نقر بهذه الحقيقة.

ليسوا لا دينيين Atheists
إنهم ضد الدين Antitheists

لم يكتف الملاحدة الجدد بعدم الإقرار بوجود الإله، ولا بالإقرار بعدم وجود الإله، ولا بدعوة الآخرين لذلك، وكلها **بدائل متاحة لإنسان لا دينى**. لكنهم أخذوا يوجهون قذائفهم **«ضد» الإله**، ليس فقط على مستوى القضايا العلمية بل أيضًا على المستوى الأخلاقى. فالملاحدة الجدد يصرحون بأنهم ليسوا ضد الأخلاق بصفة عامة، لكنهم ضد الأخلاق بالمفاهيم التى يطرحها المتدينون، ويؤكدون أن البشرية ستكون أحسن حالًا دون هذه المفاهيم.

لذلك نجد كريستوفر هتشنز (من أقطاب الإلحاد الجديد) يرعد ويزمجر ضد كوابيس العهد القديم وشرور العهد الجديد من **كتاب المسيحيين المقدس**، ويعلن **عداءه للإله الطاغية المتغطرس المستبد** الذى يراقبنا دائمًا، ذلك الإله الذى ليس عظيمًا God is not great [2] كما يدعى المتدينون. ولا يكتفى الملاحدة الجدد بنفى صفة «**السمو**» عن الديانات، بل يَدَّعون أنها قد «**سممت**» حياة البشر. وإذا كان ما يطرحه هتشنز على قدر من الصواب بخصوص نصوص العهد القديم، فقد وجدها حُدَاة الإلحاد فى الغرب والشرق فرصة لمد هذه الحملة **ضد القرآن الكريم**! فأخذوا يعملون بهمة وحماس للى النصوص وتفسير آياته بما يخدم اتجاههم المعادى للإله والدين.

(1) Peter Singer: أستاذ الفلسفة بجامعة برنستون بأستراليا، مهتم بفلسفة الأخلاق. ولد عام 1946.
(2) اسم أحد كتب هتشنز.

ويعلن وينبرج[1] أن **الدين أساء لكرامة وكبرياء الإنسان**، فبه أو بدونه ستجد إناسًا خَيِّرين يقومون بأمور خَيِّرة وإناسًا سيئين يقومون بأمور سيئة، أما أن تجد إناسًا خيرين يقومون بأمور سيئة فهذا يحتاج للدين!. ومن المثير للعجب، أن الملاحدة الجدد الذين يستنكرون **التوجهات الروحية للبوذية** لم يكتبوا كلمة واحدة ضدها! أما إنكارهم لإله التوحيد فقد جعلهم يُسَوِّدون آلاف الصفحات في الانتقاص منه عَزَّوَجَلَّ! لذلك قلنا إن الملاحدة الجدد **ليسوا فقط لا دينيين بل إنهم ضد الدين وضد الإله.**

بل ضد الإسلام

تارة يعلن ريتشارد دوكنز (وباقي شراذمه) أن موقفه المعادي يتوجه **ضد الديانات كلها**، وتارة أخرى **يركز على المسيحية** التي درس عقائدها جيدًا، وأثاره (كما يقول)[2] ما فيها من عدم منطقية ومجافاة للعلم. وأخيرًا ينكشف القناع، ويصرح دوكنز في محاولة لعقد هدنة مع المتدينين في الغرب (بعد أن عَرَّوه تمامًا) قائلًا: بقدر علمي، ليس هناك مسيحيون فجروا المباني، لم نسمع عن مسيحي انتحاري واحد، لا أعرف داعيًا مسيحيًّا واحدًا يؤمن أن للردة حد هو القتل. إن لَدَيَّ مشاعر متباينة تجاه المسيحية، لقد صرت **أعتقد أن المسيحية ربما تكون حصنًا ضد شيء أسوأ منها (يقصد الإسلام)**[3]. ويتناسى دوكنز المجازر التي قام بها المسيحيون في الحروب الصليبية، والتطهير العرقي في الأندلس والبوسنة والهرسك، والمجازر في أيرلندا، وغيرها...

وقد سعد المسيحيون بهذا التحول كثيرًا، فكتب جون لينوكس[4] يقول: من المؤسف أن دوكنز لم يفكر في ذلك أثناء تأليفه لكتاب وهم الإله، لكنني سعيد بأن أقرأ له هذا الكلام. سبحان الله... هذا دائمًا قَدَر الإسلام، أن يشتد دوران الرحى حين يظهر في الساحة.

(1) Steven Weinberg: عالم الفيزياء النظرية الأمريكي الحاصل على جائزة نوبل للسلام مشاركة مع محمد عبد السلام الباكستاني وشيلدون جلاشو. ولد عام 1933.

(2) The God Delusion, P.58

(3) في حوار نشر في مجلة التايم، 2 أبريل 2010، أجرى الحوار الصحفي Ruth Gledhill

(4) John Lennox: عالم الرياضيات وفيلسوف العلوم البريطاني. له العديد من المؤلفات دفاعًا عن المسيحية، واستشهر بمناظراته مع ريتشارد دوكنز. ولد عام 1945.

مصائب دين الإلحاد

لا يقف الملاحدة الجدد عند ادعاء سُمّية الدين وأمان الإلحاد، بل **يجعلون من المادية دينًا،** ويَدَّعون أنها قادرة على التغلب على ما فى النفس البشرية من قصور، كما يَدَّعون بصلف وعنجهية أن فى أيديهم **خلاص البشرية!**

الإلحاد المسالم!!

يَدَّعى ريتشارد دوكنز (وشرذامه) أن إنكار إنسان ما للإله **لا يمكن أن يؤذى الآخرين،** ولا يمكن أن يدفع الناس لفعل أشياء سيئة. وفى أحد حواراته، يحك دوكنز رأسه فى وقار، ويطرح تساؤلًا يبدو وجيهًا، يقول: **لا أجد حربًا واحدة نشبت باسم الإلحاد، لماذا يخوض أى إنسان حربًا بسبب غياب معتقد؟** ويستشهد على ذلك قائلًا: **لا أعتقد أن ملحدًا واحدًا مستعد لأن يُجرِّف مكة أو الكاتدرائيات المقدسة.**

ويسخر ريتشارد شرويدر[1] (أستاذ الفلسفة فى برلين) من ادعاءات دوكنز، فيقول: إن الكاتدرائيات المقدسة أعلى من أن تجرفها الجرافات، لذلك فضل ستالين فى الاتحاد السوفيتى وماوتسى تونج فى الصين تفجيرها بالديناميت. كما يفند زيجيو برزينسكى هذا الهراء قائلًا: **لقد كلفت محاولات إقامة الشيوعية فى العالم حياة أكثر من سبعين مليونًا من البشر، مما يجعلها أكثر المحاولات الفاشلة كُلفة فى التاريخ**[2].

جهل أم تزوير: تاريخ الماركسية والنازية

لقد بَسَّط ريتشارد دوكنز تاريخ الحياة على الأرض بصورة مخلة (التطور العشوائى التراكمى) لو اتَّبَعَتها الحياة لما كنا موجودين الآن!. ويبدو أن تخصصه فى «تبسيط علم التاريخ الطبيعى والبيولوجيا» انعكس على **تبسيطه للتاريخ الإنسانى!،** فغابت عنه (وعن كل الملاحدة الجدد) أمور شديدة الأهمية (عن جهل أو قصد) فى التاريخ الإنسانى المعاصر.

---

(1) Richard Schroeder: من المهتمين بفلسفة الأديان.

(2) Zbighiew Brzeinski: السياسى الأمريكى الشهير من أصل بولندى، ولد عام 1928. المقولة من كتابه Out Of Control صفحة 16، 17. والرقم الأقرب إلى الصواب هو 94 مليون قتيل.

مع الماركسية

يتخذ دوكنز من الاتحاد السوڤييتى **مثالًا لقدرة الحضارة على أن تقوم بغير دين**!. وللرد عليه، يلخص جون لينوكس ما صارحه به مفكرون ومتخصصون أكاديميون روس عن حياتهم فى الاتحاد السوڤييتى، قالوا له: كنا نظن أننا يمكن أن نكون أفضل دون إله، وأن نحافظ على إنسانية الإنسان، كم كنا مخطئين، **لقد حطمنا الإله والإنسان معًا**!. وأضاف بعضهم قائلين: إذا كان دوكنز أمينًا حقًّا فليستمع إلينا ليعرف **العلاقة بين الإلحاد وبين الإجرام والتوحش**.

ويحاول دوكنز التملص من هذه الحقيقة فيقول: ربما كان **بعض الملاحدة سيئين كأفراد منفصلين**، لكنهم **لا يمارسون الشر باسم الإلحاد**. ويعترض جون همفرى[1] (مذيع الإذاعة البريطانية BBC الشهير) على ادعاء دوكنز قائلًا: من أكثر الأشياء التى استرعت انتباهى **التعصب العقائدى عند الملاحدة الجدد**. إنهم لا يدركون أنهم ينطلقون فى إلحادهم من نقص معرفى فظيع، وتعصب عقائدى يصبغ كل ملاحظاتهم واستنتاجاتهم.

وتأكيدًا لرأى همفرى انظر قول الملحد هتشنز: إن **موقفنا ضد الدين هو منطَلَق كل الأدلة**، إنه المقدمة (وليس الاستنتاج) لكل القضايا الفلسفية والعلمية والتاريخية وكل ما يخص الطبيعة الإنسانية. لذلك نجده فى رسالته للدكتوراه يستشهد بقول ماركس «لا يُعتبر الإنسان مستقلًا إلا إذا صار سيد نفسه، أما الإنسان الذى يحيا بدعم خارجى فليس إنسانًا مستقلًا، **ويُعتبر الإنسان تابعًا كاملًا لآخر إذا دان له بوجوده الأول وباستمرارية حياته**» ويضيف ماركس: **«إن محو الدين كمصدر للسعادة المتوهَمة هو الطريق لتحصيل السعادة الحقيقية»**. وبالرغم من وضوح ما قاله ماركس، **يصر الملاحدة الجدد على الفصل بين الماركسية والإلحاد**، لا شك أن ادعاءهم يثير الضحك والشفقة.

ألم يقرأ دوكنز وشراذمه كتاب «**الكتاب الأسود للشيوعية**»[2]، ألم يقرأوا فيه: «**لقد حولت النظم الشيوعية الجرائم الجماعية إلى عمل مشروع**. لقد بلغ **عدد الضحايا حوالى 94 مليون قتيل**، منهم 85 مليون فى روسيا والصين فقط». ألم يسمع دوكنز بملايين أخرى كثيرة

(1) John Humphry: صاحب البرنامج الشهير فى BBC بعنوان: همفرى باحثًا عن الإله.

(2) The Black Book Of Communism. من تأليف عدد من المفكرين والسياسيين الأوروبيين، نُشر عام 1997 تحت إشراف ستيفان كورتويس.

اقترب بها **التعذيب** من حافة الموت، وملايين آخرين **نُفوا إلى سيبريا**، وأكثر منهم دُفعوا إلى **إدمان المخدرات**. ذلك بالإضافة إلى ملايين **قضوا أعمارهم فى السجون** لجريمة وحشية ارتكبوها، وهى أنهم آمنوا بالإله. ولا شك أن ملايين عديدة **حُرموا من فرص التعليم** لنفس السبب، وهذا هو **القتل الفكرى** الأسوأ من تدمير المبانى. وأحيانًا كان ستالين رحيمًا فلم يفجر دور العبادة، بل كان **يحولها إلى متاحف أو سينيمات أو مطاعم**، لقد أغلق ستالين عشرات الآلاف من المساجد وعشرات الآلاف من الكنائس، ألم يقرأ دوكنز ذلك؟!

وماذا عن هتلر؟

فى كتاب «إله هتلر Hitler's God »، يبين المؤرخ مايكل ريسمان[1] أن هتلر اعتبر قوانين الطبيعة التى تعمل فى الكون هى الإله، واعتبر أن **المسيحية** تُـزَوِّج لإلهين (الأب والابن)، وأنها **أكبر ضربة أصابت البشرية**، وأن العالم كان نقيًا طاهرًا قبل أن يعرف مصدرَىَّ المعاناة الكبيرين للبشرية؛ الجدرى والمسيحية[2]. وينظر هتلر للمسيحية باعتبارها **عقيدة تبيد معارضيها باسم الحب**، وأن محورها هو عدم تقبل الآخر[3].

ومهما حاول المتعصبون لهتلر إظهار تعاطفه مع المسيحية بالإشارة إلى نشأته الدينية، فموقفه الفعلى يتجلى فى عدائه **الرهيب للمسيحيين واليهود**. وفى نفس الوقت يحاول الملاحدة التخلص من عبء نسبة ستالين وهتلر إلى الإلحاد، فيحسبهما هتشنز على المتدينين لخلفيتهما الدينية!. ونحن ندحض هذه المحاولة بأن نُذَكِّر بأن **معظم زعماء الإلحاد الجديد كانت نشأتهم دينية!**

ويحاول دوكنز أيضًا التنصل من مصائب ستالين وهتلر، فيخرج علينا بمقولات بالغة السخف، مثل: حتى إذا قبلنا أن ستالين وهتلر يشبهان الملاحدة فذلك لا يعنى وجود علاقة بين الطغيان والإلحاد، إذ أن لهتلر وستالين شاربين مثلما أن لصدام حسين شاربًا[4]، فهل هما

(1) Michael Rissmann: المؤرخ الألمانى المهتم بتاريخ النازية وهتلر.

(2) يختلف دوكنز مع هتلر قليلًا، إذ يعتبر أن الدين ڤيروس مثل ڤيروس الجدرى، يصيب العقل لكنه أصعب فى القضاء عليه!

(3) يشبه موقف هتلر من المسيحية موقف نيتشه، حين وصفها بأنها لعنة كبرى، خواء وفقر داخلى، غريزة للانتقام، لا يقف فى وجهها شىء؛ لذلك أطلق عليها **الوصمة الخالدة للإنسانية**.

(4) The God Delusion, P. 309

مسلمين؟!. ما هذا الهراء؟ نحن لا نتحدث عن صفات مشتركة، لكن عن العقيدة المحركة التى دفعت ستالين وهتلر وآخرين لقتل الملايين للتخلص من الدين.

ولا يمنع تزوير الملاحدة لتاريخ الإلحاد أن بعضهم كانوا أكثر إنصافًا لحقائق التاريخ، فهذا مارك هوسر[1] يقول: حتى لا نُتهم بالنظرة الأُحادية، نقول إن الملاحدة ارتكبوا قدرًا كبيرًا من الجرائم الفظيعة، مثل مجازر ستالين التى ذهب ضحيتها الملايين فى الاتحاد السوفييتى، وحقول القتل التى دفن فيها بول بوت[2] أكثر من مليون كمبودى. و إذا وضعنا كل الشواهد معًا، خرجنا باستنتاج واحد، وهو أن **كلًّا من المتدينين والملاحدة لا ينفرد بمسرح الجرائم.**

إلحاد الاستنارة مَصْدَر العنف

يعلمنا استقراء التاريخ أن الحركات التى تبدأ بالتحليل الفكرى ثم المناظرات الفكرية يمكن أن **تؤدى إلى عدم قبول الآخر ثم إلى العنف.** مثال ذلك كارل ماركس الذى جلس فى مكتبه فى لندن يكتب أفكاره الإلحادية فى هدوء، ثم آل الأمر فى القرن العشرين إلى ما آل إليه من مذابح لم يكن يتصورها ماركس نفسه. **إن للأفكار عواقب وتوابع ومنها ما هو قابل للانفجار**، وبدلًا من أن تؤدى الأفكار الإلحادية إلى القضاء على الدين والإله فإنها قضت على إنسانية الإنسان.

إن الغشاوة تحجب هذا المفهوم البديهى عن عقول الملاحدة، فيتمادون فى أوهامهم. هذا مايكل أونفراى[3] يصف فلاسفة الإلحاد الكبار، نيتشه وماركس وفيرباخ[4]، بأنهم رجال الاستنارة (المُشْرِقين) الذين أعقبوا الفيلسوف كانت! ياله من **وصف مضلل لرجال غَذَّت فلسفاتهم الإلحادية عقول طغاة ومستبدى القرن العشرين**، فنشروا الظلام فى معظم بقاع الأرض وأغرقوها فى بحار دماء الملايين. إن ما سببه الإلحاد من كوارث فى القرن العشرين وحده يفوق كل ما سببته الحروب الدينية عبر التاريخ، هل هؤلاء حقًّا هم رجال الاستنارة؟!

---

(1) Mark Hauser: عالم البيولوجيا التطورية الأمريكى، ولد عام 1959.

(2) Pol Pot : (1925 - 1998)، زعيم الحركة الشيوعية المعروفة بالخمير الحمر بكمبوديا، اشتهر بممارساته القمعية.

(3) Michel Onfray: الفيلسوف الفرنسى الملحد. ولد عام 1959.

(4) Feurbach: (1804 - 1872)، الفيلسوف الألمانى المهتم بعلوم الإنسان، اشتهر بنقده للمسيحية.

ويضع جون جراى[1] يده على هذه الحقيقة فيقول: «إن دور حركة الاستنارة فى إرهاب القرن العشرين يظل نقطة سوداء فى جبين الحضارة المعاصرة. **لقد انبثق النظام الشيوعى الرهيب من قلب أحلام المدينة الفاضلة لفلاسفة التنوير**. إن الرعب الذى سببه ستالين ولينين تتضاءل أمامه كل المعاناة التى سببها القياصرة المتدينين السابقين فى روسيا».

هل يعتقد الملاحدة الجدد حقًا أن المجتمع العلمانى الذى تلاشى منه الدين يكون أقل عرضه للعنف من مجتمع تَقَبَّلَ الدين؟! إن هذه فكرة مرفوضة فى **عصر مارست فيه المجتمعات العلمانية أقصى أشكال العنف فى التاريخ**.

الإلحاد الأصولى أشد خطرًا

يقول دوكنز فاضحًا كراهيته للدين التى لا هوادة فيها: «**إن تعليم الدين بأسلوب وسطى معتدل هو باب للتطرف الدينى**»[2]! ونحن نجيبه بنفس منطقه؛ فإن **الاتجاه اللادينى المعتدل يمكن أن يكون بابًا للتطرف ضد الدين، فيثير رد فعل دينى متطرف**. إن ذلك التسلسل ليس فرضية أو تصور بل هو تسلسل حقيقى كلف البشرية الكثير. إن نظرة سريعة لما صار يُعرف **بالأصولية الإسلامية** التى مارس بعض رموزها أشكالًا من العنف ضد الغرب تُظهر أنها **موقف دفاعى مباشر ضد محاولات القضاء على الإسلام**.

وقد عبر ملفن كونر[3] عن عداء الملاحدة الجدد للدين وإصرارهم على القضاء عليه بقوله ساخرًا: إن الملاحدة استوفوا القضية من كل جوانبها، ولم يبق إلا سؤال واحد: **هل يضربون الدين بقضيب حديدى أم بمضرب البيسبول الخشبى**[4]!

التشخيص النهائى

لقد وضع ديڤيد بيرلنسكى[5] أيدينا على حقيقة العلاقة بين الإلحاد والشر حين قال: «إن

(1) John Gray: الكاتب الأمريكى الشهير. ولد عام 1951.

(2) God Delusion, P. 342

(3) Melvin J.Konner: أستاذ علم الإنسان والأمراض النفسية والعصبية فى جامعة إيمورى، بالولايات المتحدة.

(4) كان ذلك فى المؤتمر الذى نظمته The Science Netwark فى Salk Insritute فى La Jolla بكاليفورنيا.

(5) David Berliniski: فيلسوف أمريكى، من دعائم مدرسة التصميم الذكى ومؤسسة ديسكڤرى. ولد عام 1942.

الذين اقترفوا جرائم ضد البشرية، مثل هتلر وستالين وماوتسى تونج وضباط الجستابو والـ NKVD، وكل النازيين والشيوعيين، **لم يكونوا يعتقدون أن الإله يراقبهم**»، وهذا ببساطة هو مفهوم مجتمع العلمانية المطلقة.

فالفكر العلمانى ينظر إلى الإنسان باعتباره جزءًا من الطبيعة، وينظر إلى الإيمان بالدين باعتباره **انتحارًا متواصلًا للعقل البشرى**(1). لذلك يستبعد العلمانيون الدين كمصدر للمعرفة والأخلاق والقوانين، ويستنبطونها من تجارب الإنسان وخبراته الحياتية، وبالتالى يصبح **الإنسان هو المُطلَق بدلًا من الله** عَزَّوَجَلَّ.

وبناء على مقولة دستوفسكى التى وردت فى قصته «الإخوة كرامازوف»، والتى صَدَّرنا بها الفصل، يطرح ديفيد بيرلنسكى هذه القضية المنطقية:

مقدمة أولى: الإله غير موجود، إذًا كل شىء مباح ... دستوفسكى.

مقدمة ثانية: إذاً كان العلم صادقًا، فالإله غير موجود ... العلم المادى.

إذًا: **إذا كان العلم صادقًا، فكل شىء مباح!!**

إن هذا الاستنتاج لا يعنى أن الملاحدة عاجزون عن اتباع السلوك القويم، بل يعنى أن الإلحاد لا يمدهم بمنظومة أخلاقية. وعندما نفى الملاحدة الجدد وجود أصول غير مادية لأخلاقنا وقيمنا فإنهم لم يقدموا لنا فرضيات بديلة، وبذلك ألقوا كل شىء إلى **ضياع مطلق. إن الملاحدة الجدد ملاحدة أغبياء**، لم يدركوا عواقب إلحادهم!! تصور ما سيحدث لأجيالنا القادمة عندما نلقن هذه المفاهيم لأبنائنا فى المدارس وفى الإعلام!!

القارئ الكريم...

تمثل الألوهية والدين والأخلاق **فى المنظور الإسلامى متتالية**، تبدأ بالإيمان **بالله** عَزَّوَجَلَّ الذى **أنزل الدين**، وجعل من أساسياته استكمال **المنظومة الأخلاقية** للإنسان. ولتأصيل هذه المنظومة فى النفس الإنسانية استخدم الإسلام منهجًا من **ثلاث آليات تعمل بشكل متتال:**

---

(1) كان نيتشه يشير إلى الإيمان المسيحى عندما أطلق هذه العبارة.

الفطرة ـ الرسالة ـ العقل

ويرفض **الملاحدة** القول بأسس فطرية للحس الإلهى والحس الدينى والحس الأخلاقى. كما يرفضون القول **برسالات سماوية** تُعَرِّف الإنسان بالإله وبالدين وتنبهه إلى هذه **المشاعر الفطرية** التى كثيرًا ما يطمسها الشق المادى فى بنيته. ولا شك أن الملاحدة يرفضون كذلك دلالة **العقل** على هذه المنظومة. ويعتبر الملاحدة بزوغ متتالية (الألوهية ـ الدين ـ الأخلاق) **إحدى نتائج التطور الداروينى** فى أثناء صراع الإنسان فى مواجهة قوى الطبيعة والشرور والآلام.

إن الخطأ المزرى الذى يقع فيه الماديون هو **تصورهم أن وجود فوائد من وراء فكرة الإله والدين، يعنى أن الإنسان قد اخترعها لتحصيل هذه الفوائد**.ومن ثم اعتبروا أنهم إذا أثبتوا الفائدة فقد أثبتوا أن الألوهية والدين من اختراع الإنسان! وكأن الإله إذا خلق لا ينبغى أن يحقق فائدة!!

وتمثل نشأة **الأخلاق الحميدة كالتعاطف والإيثار** التحدى الأكبر للداروينية عند تصديها لتفسير نشأة منظومة الإنسان الأخلاقية، فهذان الخُلقان يتعارضان بشكل مباشر مع التطور الداروينى العشوائى الذى يسعى بأنانية لمصلحة الذات الإنسانية والمحافظة عليها.

ويصر الدراونة على أن **الطبيعة المادية هى مصدر الأخلاق الإنسانية**،وعلى الإنسان أن يدرك أن ليس هناك خير أو شر، ليس هناك إلا المصلحة. إن الأم الطبيعة لا مبالية بكل آلام الإنسان، إذ **ليس لديها أى هدف**!!

لم يكتف الملاحدة الجدد بعدم الإقرار بوجود الإله، ولا بالإقرار بعدم وجود الإله، ولا بدعوة الآخرين لذلك، وكلها بدائل متاحة لإنسان لادينى. لكنهم أخذوا يوجهون قذائفهم «**ضد» الإله**، ليس فقط على مستوى القضايا العلمية، بل أيضًا على المستوى الأخلاقى. فالملاحدة الجدد يصرحون أن الكتب المقدسة تطرح مفاهيم أخلاقية متدنية، ويؤكدون أن البشرية ستكون أحسن حالًا دون هذه المفاهيم. وقد أثبتت كتابات الملاحدة الجدد الأخيرة أن عداءهم فى المقام الأول ليس ضد الدين، أو ضد المسيحية، بقدر ما هو ضد الإسلام.

كما يدعى الملاحدة الجدد أن الإلحاد لا يمكن أن يدفع شخصًا ما لارتكاب أية إساءات

تجاه الآخرين، متناسين أن محاولات إقامة الشيوعية الملحدة فى العالم كلفت البشرية أكثر من 94 مليون قتيل من البشر، مما يجعلها أكثر المحاولات الفاشلة كُلفة فى التاريخ.

ويمكن تلخيص العلاقة بين الإلحاد والشر فى قول واحد، وهو أن الملاحدة الذين ارتكبوا المجازر فى حق الإنسانية لم يكونوا يعتقدون أن الإله يراقبهم، وهذا ببساطة هو مفهوم «المجتمع العلمانى» الذى لم يكتف بإخراج الدين من دائرة السياسة (العلمانية الجزئية) بل يخرجه من الحياة كلها (العلمانية المطلقة).

وأخيرًا نؤكد أن العلم قد أثبت أن المنظومة الإلهية الدينية الأخلاقية فطرة فى النفس البشرية، تقف وراءها آليات جينية وعصبية ونفسية، ولا يمكن أن تنشأ عشوائيًّا، ولا بد أن يكون وراءها إله حكيم قادر.

□□□